أسس بناء المجتمع الإسلامي كما تصورها سورة الحُجُرات دراسة تفسيرية موضوعية

إعداد
الدكتورة/ إنعام بنت محمد مصطفى بديوي
الأستاذ المشارك في القرآن وعلومه، بقسم الدراسات الإسلامية
بكلية الشريعة والقانون، بجامعة تبوك بالمملكة العربية السعودية

ebedawy@ut.edu.sa

المستخلص :

يتناول هذا البحث بالدراسة التفسيرية الموضوعية: أسس بناء المجتمع الإسلامي كما تصورها سورة الحجرات، وتتمثل أهميته في: حاجة المجتمع الإسلامي إلى الاقتداء بهدي القرآن الكريم في عصرنا الذي طغت فيه المادة، ومعرفة أسس بناء المجتمع الإسلامي في ظل الانفتاح المعاصر. ويهدف إلى: استنباط أسس بناء المجتمع الإسلامي في ضوء سورة الحُجُرات، وبيان أثرها في بنائه بناء قويا راسخا. ويقوم ثلاثة مناهج هي: الموضوعي، والتحليلي، والاستنباطي. ويأتي في مقدمة، وتمهيد، واثني عشر مطلبا، تضمن كل مطلب منها أساسا من أسس بناء المجتمع التي تضمنتها سورة الحجرات. والمتمثلة في: تقديم أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، على كل شيء، ووجوب الالتزام بتقوى الله تعالى، ووجوب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ووجوب التثبت من الأخبار، ووجوب الإصلاح بين المتخاصمِين، وإعانة المظلومين، ودفع عدوان الباغين، ووجوب المحافظة على أخوة الإيمان، ووجوب تطهير المجتمع من مساوئ الأخلاق، وإرساء مبدأ المساواة في الإنسانية، وميزان التفاضل في الإسلام، ووجوب التحقق بالإيمان، وتحريم المَنِّ بالإسلام، ووجوب نسبة الفضل لله تعالى، وتقرير أن علم الله تعالى محيط بكل شيء.

الكلمات المفتاحية: أسس بناء – المجتمع الإسلامي – سورة الحجرات - دراسة تفسيرية موضوعية.

The foundations of building an Islamic society As depicted in Surat Al-Hujurat An objective interpretive study

Dr. In'am bint Muhammad Mustafa Badawi
Associate Professor of the Qur'an and its Sciences, Department of Islamic Studies, College of Sharia and Law, University of Tabuk, Kingdom of Saudi Arabia
ebedawy@ut.edu.sa

Abstract:

This research deals with an objective interpretive study: The foundations of building an Islamic society as depicted in Surat Al-Hujurat. Its importance lies in: The need of the Islamic society to follow the guidance of the Holy Quran in our era in which materialism has become dominant, and to know the foundations of building an Islamic society in light of contemporary openness. It aims to: deduce the foundations of building an Islamic society in light of Surat Al-Hujurat, and to demonstrate its impact on building it with a strong and solid foundation. It is based on three approaches: the objective, the analytical, and the deductive. It comes in an introduction, a preface, and twelve requirements, each of which includes a foundation of the foundations of building a society included in Surat Al-Hujurat. Represented in: giving precedence to the command of Allah Almighty and His Messenger, may God bless him and grant him peace, over everything, the obligation to adhere to fearing Allah Almighty, the obligation to be polite with the Messenger, may God bless him and grant him peace, the obligation to verify the news, the obligation to reconcile between disputants, to help the oppressed, to repel the aggression of the aggressors, the obligation to preserve the brotherhood of faith, the obligation to purify society from moral wickedness, to establish the principle of equality in humanity, the scale of differentiation in Islam, the obligation to verify faith, the prohibition of boasting about Islam, the obligation to attribute the merit to Allah Almighty, and the establishment that Allah Almighty's knowledge encompasses everything.

Keywords: Foundations of building - Islamic society - Surah Al-Hujurat - an objective interpretive study..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فإنه من فضل الله على أمة الإسلام أن جعل القرآنَ الكريم المعجزةَ الخالدة، والمصدرَ الأول للتشريع، والمنهاجَ الأعظم للحياة، والدستور الأكرم للأخلاق. لقد أودع الله تعالى فيه كل ما يصلح الناس في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ قال عز شأنه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]؛ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، فهو مصدر السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

وإن مما زخرت به آياته الكريمة ما تضمنته من الأسس العظيمة لبناء المجتمع الإسلامي؛ بناء شامخا قويا راسخا، لا تهزه الأعاصير، ولا تقتلعه الفتن؛ وذلك مبثوث في كثير من سوره الكريمة.

وقد تبين لي أثناء تدبري لسورة (الحُجُرات) أنها تضمنت جانبا عظيما من تلكم الأسس التي يقوم عليها بنيان المجتمع الإسلامي، فعقدت العزم على تسجيل تلك القراءة التدبرية، في هذا البحث الذي أسميته: (أسس بناء المجتمع الإسلامي كما تصورها سورة الحجرات، دراسة تفسيرية موضوعية).

أهمية البحث: وتتمثل في الآتي:

أولا: حاجة المجتمع الإسلامي إلى الاقتداء بهدي القرآن الكريم لا سيما في عصرنا الذي طغت فيه المادة على كل شيء.

ثانيا: حاجة المجتمع الإسلامي إلى معرفة أسس بناء المجتمع الإسلامي، في ظل الانفتاح الكبير على ثقافات كثيرة معاصرة.

ثالثا: أن سورة الحجرات تضمنت كثيرا من الأسس الخاصة ببناء المجتمع الإسلامي.

أهداف البحث: وتتمثل في الآتي:

أولا: بيان منهج القرآن الكريم في بناء المجتمع، من خلال سورة الحُجُرات.

ثانيا: استنباط أسس بناء المجتمع الإسلامي في ضوء سورة الحُجُرات، وبيان أثرها في بنائه بناء قويا راسخا.

ثالثا: خدمة القرآن الكريم والمكتبة القرآنية بهذه الدراسة المتخصصة.

الدراسات السابقة:

لا شك أن سورة الحُجُرات – كغيرها من سور القرآن الكريم – قد حظيت بكثير من الدراسات القرآنية، قديما وحديثا، ولكني لم أعثر على دراسة تناولتها بهذا العنوان، ولا بهذه المنهجية، والمحتوى. ومما عثرت عليه ما يأتي:

١- أسس البناء الحضاري للمجتمع في ضوء سورة الحجرات، للدكتور/ حامد بن يعقوب الفريج، بحث منشور بمجلة تبيان للدراسات القرآنية، بالمملكة العربية السعودية، العدد (١٩)، ٢٠١٥م.

- وجاء في مقدمة وتمهيد، ثم ذكر الأسس من غير أن يصنفها تحت فصول أو مباحث أو مطالب أو غير ذلك، هكذا: الأول: الإيمان، الثاني: الطاعة، الثالث: الأخوة، الرابع: العدل، الخامس: الأخلاق، السادس: المساواة، السابع: الرقابة الذاتية، الثامن: التوبة.

** ومنهج هذا البحث وطريقة تصنيفه ومعالجته للموضوع مختلفة عن منهج البحث الحالي من جهات عدة أهمها:

أولا: أن هذا البحث لم يتناول السورة حسب ترتيب آياتها، وإنما اعتمد التصنيف السابق، وذكر تحته ما يتصل به من آيات السورة أو عباراتها، وبين معناها بصورة إجمالية.

أما البحث الحالي فسار على ترتيب آيات السورة ووضع لكل آية أو آيات عنوانا يناسب مضمونها، بطريقة جمعت بين التفسير التحليلي والموضوعي، بما يبين المناسبات والارتباط الوثيق بين الآيات، ويشرح المراد منها دون خلل أو إطناب.

ثانيا: أن طريقة تصنيف هذا البحث لأسس بناء المجتمع الإسلامي تختلف عن طريقة تصنيف البحث الحالي، وهذا ظاهر من أدنى نظر لخطة البحثين.

وبهذا يظهر الاختلاف الكبير بين البحثين، وإن تناولا تفسير نفس السورة الكريمة.

٢- أثر سورة الحجرات في حماية نسيج المجتمع الإسلامي، للدكتور/ رسول طه خلف، والباحثة: ميسون حيدر طه، بحث منشور بمجلة مداد الآداب، بالجامعة العراقية، عدد خاص بالمؤتمر ٢٠١٩م

- وجاء في مقدمة وثلاثة مطالب، أولها: الأدب مع الله جل وعلا ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، والثاني: سورة الحجرات منهج الدعاة، والثالث: أدب التعامل مع العلماء.

وهو بحث دعوي، ولم يتطرق من قريب أو بعيد لأسس بناء المجتمع الإسلامي.

٣- آداب بينات من سورة الحجرات دراسة تفسيرية، للدكتور/ نواف مزيد السريحي، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، بجامعة الأزهر، بمصر، المجلد (٣٧)، العدد (٣)، ٢٠٢٢م.

- وجاء في مقدمة وتمهيد ومبحثين، الأول: الوحدة الموضوعية للسورة، الثاني: الأحكام الشرعية المتعلقة بسورة الحجرات.

** وهو بحث معني ببعض الجوانب الفقهية في السورة، ولم يتطرق من قريب أو بعيد لأسس بناء المجتمع الإسلامي.

٤- الخطاب القرآني في تثبيت المواطنة من خلال سورة الحجرات، للدكتور/ عباس معتق الرشيدي، بحث منشور بالمجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، بجامعة الأزهر، العدد (١٤) ٢٠٢٤م.

- وجاء في مقدمة وثلاثة مباحث: الأول: مفهوم المواطنة وتثبيتها، الثاني: التأصيل الشرعي للمواطنة الصالحة في الإسلام، الثالث: دعائم تثبيت المواطنة كما وردت في سورة الحجرات.

** وواضح من محتواه أنه لم يتطرق من قريب أو بعيد لموضوع البحث الحالي.

٥- المجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات، للدكتور/ هشام كمال أبو العز، بحث منشور بالمجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، بجامعة الأزهر، المجلد (٢٩)، العدد (٣) ٢٠١٧م.

- وجاء في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث: الأول: محور السورة الكريمة، الثاني: منهج السورة في الدعوة إلى صون حرمات المسلمين، الثالث: منهج السورة في تقرير الضوابط الإيمانية التي يجب أن يتصف بها المجتمع الإسلامي.

** وهو بحث دعوي، ولم يتطرق من قريب أو بعيد لأسس بناء المجتمع الإسلامي.

٦- سورة الحجرات آداب وأحكام، للدكتور/ أحمد بن عمر السيد، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، بجامعة الأزهر، بمصر، المجلد (٣٠)، العدد (٣) ٢٠١٤م.

- وجاء في مقدمة وتمهيد وفصلين، الأول: بين يدي السورة، والثاني: الأحكام والآداب الواردة في السورة.

** وهو بحث معني ببعض الجوانب الفقهية في السورة، ولم يتطرق من قريب أو بعيد لأسس بناء المجتمع الإسلامي.

منهج البحث:

قام هذا البحث على ثلاثة مناهج هي: الموضوعي، والتحليلي، والاستنباطي، حيث تم تقسيم آيات السورة الكريمة تقسيما موضوعيا حسب ترتيب آياتها وما تضمنته من أسس بناء المجتمع الإسلامي، ثم تحليل الآيات في كل موضع بما يفي بالغرض ويوضح المقصود، ثم استنباط ما تيسر من معانيها حسب التصنيف الموضوعي للبحث.

وقد آثرت السير وفقا لترتيب آيات السورة الكريمة – على طريقة التفسير التحليلي -؛ رغبة في استجلاء ما بين آياتها الكريمة من مناسبات وارتباط وثيق لا يصح إغفاله في بيان المعنى المراد.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقسم إلى مقدمة، وتمهيد، واثني عشر مطلبا، وخاتمة.

المقدمة: في أهمية الموضوع، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهجه، وخطته.

التمهيد: تعريف موجز بسورة الحجرات.

المطلب الأول: الأساس الأول: تقديم أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، على كل شيء.

المطلب الثاني: الأساس الثاني: وجوب الالتزام بتقوى الله تعالى.

المطلب الثالث: الأساس الثالث: وجوب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

المطلب الرابع: الأساس الرابع: وجوب التثبت من الأخبار.

المطلب الخامس: الأساس الخامس: وجوب الإصلاح بين المتخاصِمِين، وإعانة المظلومين، ودفع عدوان الباغين.

المطلب السادس: الأساس السادس: المحافظة على أخوة الإيمان.

المطلب السابع: الأساس السابع: وجوب تطهير المجتمع من مساوئ الأخلاق.

المطلب الثامن: الأساس الثامن: الالتزام بتقوى الله تعالى.

المطلب التاسع: الأساس التاسع: إرساء مبدأ المساواة في الإنسانية، وميزان التفاضل في الإسلام.

المطلب العاشر: الأساس العاشر: وجوب التحقق بالإيمان.

المطلب الحادي عشر: الأساس الحادي عشر: تحريم المَنِّ بالإسلام، ووجوب نسبة الفضل لله تعالى.

المطلب الثاني عشر: الأساس الثاني عشر: علم الله تعالى محيط بكل شيء.

الخاتمة: وتتضمن أهم نتائج البحث وتوصياته، ثم فهرس المصادر والمراجع.

التمهيد

تعريف موجز بسورة الحجرات

أولا: اسمها، ووجه تسميتها:

سميت في جميع المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير سورة (الحُجُرات)، وليس لها اسم غيره. ووجه تسميتها: أنها ذكر فيها لفظ الحُجُرات[١]. فقد ورد فيها حديث القرآن الكريم عن الذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من راء حجرات نسائه، أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

أولا: زمان نزولها، وعدد آياتها:

سورة الحُجُرات مدنية، وعدد آياتها: ثماني عشرة آية[٢].

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة (المجادلة) وقبل سورة (التحريم) وكان نزولها سنة تسع من الهجرة[٣].

ثانيا: ترتيبها في المصحف:

هي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب المصحف الشريف، جاءت بعد سورة (الفتح)، وقبل سورة (ق).

ثالثا: المناسبة بينها وبين السورة التي قبلها: سورة (الفتح):

ذكر المفسرون في مناسبة سورة (الحجرات) لسورة (الفتح) عدة مناسبات، منها:

- أن سورة (الفتح) نزلت في أعقاب صلح الحديبية، وتناولت ما كان من بعض الصحابة حين عز عليهم قبول الرسول صلّى الله عليه وسلّم بتلك الشروط، التي هي في ظاهرها ظلم للمسلمين، ... الخ، فجاءت سورة (الحجرات) موجهة إياهم بأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله شيئا، ولا يتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله به.

- أن الله تعالى أثنى في سورة (الفتح) على النبي عليه الصلاة والسلام وبين علو درجته ومكانته، وجاءت سورة (الحجرات) لبيان كثير من أنواع الأدب والتوقير والتبجيل معه صلى الله عليه وسلم[٤].

رابعا: مقاصدها:

قال الرازي ملخصا مقاصد هذه السورة الكريمة:

"هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى، أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم، أو مع غيرهم من أبناء الجنس، وهم على صنفين، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة، أو خارجا عنها وهو الفاسق، والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضرا عندهم، أو غائبا عنهم، فهذه خمسة أقسام: أحدها: يتعلق بجانب الله تعالى. وثانيها: بجانب الرسول صلى الله عليه وسلم، وثالثها: بجانب الفساق، ورابعها: بالمؤمن الحاضر، وخامسها: بالمؤمن الغائب، ونادى الله تعالى المؤمنين في هذه السورة خمس مرات، وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة[٥].

قال الطاهر بن عاشور معقبا على تحليل الرازي:

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٦/ ٢١٣.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي: ٩/ ٦٩، والتفسير الوسيط للواحدي: ٤/ ١٤٨، ومعالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٢٥١، والمحرر الوجيز لابن عطية: ٥/ ١٤٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٦/ ٣٠٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢١٣.

(٤) التفسير الكبير للرازي: ٢٨/ ٩١، بتلخيص.

(٥) التفسير الكبير: ٢٨/ ٩٧، ٩٨.

"ويريد الفخر الرازي من هذا البيان: أن الله تعالى ذكر مثالا من كل صنف من أصناف مكارم الأخلاق بحسب ما اقتضته المناسبات في هذه السورة، بعد الابتداء بما نزلت السورة لأجله ابتداء؛ ليكون كل مثال منها دالا على بقية نوعه، ومرشدا إلى حكم أمثاله، دون كلفة ولا سآمة"(١).

ويمكن القول بأن هذه السورة الكريمة قد تضمنت في مقاصدها جانبا عظيما من الأسس التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي بناء إيمانيا وأخلاقيا واجتماعيا، قويما وراسخا، والتي تتمثل إجمالا في الآتي:

الأساس الأول: تقديم أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، على كل شيء.

الأساس الثاني: وجوب الالتزام بتقوى الله تعالى.

الأساس الثالث: وجوب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

الأساس الرابع: وجوب التثبت من الأخبار.

الأساس الخامس: وجوب الإصلاح بين المتخاصمِين، وإعانة المظلومين، ودفع عدوان الباغين.

الأساس السادس: المحافظة على أخوة الإيمان.

الأساس السابع: وجوب تطهير المجتمع من مساوئ الأخلاق.

الأساس الثامن: الالتزام بتقوى الله تعالى.

الأساس التاسع: إرساء مبدأ المساواة في الإنسانية، وميزان التفاضل في الإسلام.

الأساس العاشر: وجوب التحقق بالإيمان.

الأساس الحادي عشر: تحريم المَنِّ بالإسلام، ووجوب نسبة الفضل لله تعالى.

الأساس الثاني عشر: علم الله تعالى محيط بكل شيء.

وأتناول في المطالب الآتية تفسير السورة الكريمة وفق ترتيب آياتها في ضوء تلك الأسس بما يوضح المراد ويشرح المقصود، بأسلوب وسط بين الإيجاز الإطناب.

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢١٣.

المطلب الأول

الأساس الأول: تقديم أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، على كل شيء

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات: ١].

افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بنداء المؤمنين، وهو نداء رحمة وتكريم، وكرره فيها خمس مرات؛ حثا منه تعالى على الامتثال لما تضمنته من توجيهات وإرشادات.

وقد تضمن هذا النداء الكريم ههنا تعليم المؤمنين أعلى وأجل مراتب الأدب، وهي مرتبة الأدب مع الله تعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم؛ والمتمثلة في: تقديم ما شرعه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، على كل شيء.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية عدة روايات:

منها: ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن الزبير أنه قال: (قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمِّرِ القَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدٍ، وَقَالَ عُمَرُ: بَلْ أَمِّرِ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتَ إِلَى، أَوْ إِلَّا خِلاَفِي، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ، فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا"، فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات:١][(١)].

ومنها: ما أخرجه عبد الرزاق والطبري عن الحسن: أنها نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يعيدوا الذبح[(٢)]. وغير ذلك مما ورد في كتب التفسير.

ولما كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كان القول بالعموم أولى؛ ولهذا قال ابن العربي: "هذه الأقوال كلها صحيحة تدخل تحت العموم؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب"[(٣)].

والمعنى: "يا أيها الذين آمنوا لا تقطعوا أمرا إلا بعد الرجوع إلى حكم الله تعالى وحكم رسوله صلى الله عليهم وسلم، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزَّل، وإما مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه يدور تفسير ابن عباس رضى الله عنه"[(٤)]. قال ابن عباس: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة[(٥)]، وقال مجاهد: لا تفتاتوا على الله شيئا حتى يقضيه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم[(٦)].

ولعظم الأمر وجلاله لم يذكر الله تعالى مفعول (تُقَدِّمُواْ)؛ حيث قال: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾، وتركه مطلقا من غير تقييد ولا تخصيص، فلم يحدد ما الذي لا يجوز تقديمه على أمره تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: التفسير، سورة الحجرات، باب: (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله): ١٣٧/٦، ح(٤٨٤٧).

(٢) أخرجه عبد الرازق في التفسير: ٢١٨/٣ رقم (٢٩٢٣)، والطبري في جامع البيان: ٧٤/٢٦، وزاد السيوطي في الدر المنثور: ٥٤٧/٧ نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر. وإسناده: ضعيف؛ لأنه مرسل.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي: ١٣٧/٤. وينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٦/ ٣٠٠، والتحرير والتنوير: ٢٦/ ٢١٦.

(٤) الكشاف للزمخشري: ٤/ ٣٥٠.

(٥) جامع البيان: ٢٢/ ٢٧٢.

(٦) جامع البيان: ٢٢/ ٢٧٦.

يقول الزمخشري: "وفي قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ من غير ذكر مفعول: وجهان: أحدهما: أنه محذوف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يمكن أن يُقدَّم. والثاني: ليكون النهي متوجها إلى نفس التقدمة؛ كأنه قيل: لا تُقْدِموا على التلبس بهذا الفعل أصلا، ولا تجعلوه منكم بسبيل"(١).

فهذا توجيه من الله تعالى للمؤمنين بوجوب الأدب مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، في كل قول وفعل؛ فلا يجوز لهم أن يقدموا قولا أو فعلا، أيًا كان، على قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم وفعله، فيما سبيله أن يأخذوه عنه من أمر الدين وأمر الدنيا.

قال ابن كثير: "هذه آداب أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: لا تسارعوا في الأشياء بين يديه؛ أي: قبله، بل كونوا تبعا له في جميع الأمور، حتى إنه ليدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه؛ إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن: («كَيْفَ تَقْضِي؟»، فَقَالَ: أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟»، قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»، قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي، قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ»)(٢)، والشاهد منه: أن معاذا رضي الله عنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله"(٣).

وبهذا التوجيه الإلهي حددت الآية الكريمة الأساس الأول الذي لا تقوم للمجتمع الإسلامي قائمة بدونه، وهو: تقديم أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، على كل شيء، وهذا هو أعلى وأجل مراتب الأدب مع الله تعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فلا يجوز للمؤمنين أن يتصرفوا في أي أمر يتعلق بشؤون الدين أو بشؤون الدنيا إلا بعد الرجوع إلى حكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا لعمري أهم أساس من أسس بناء المجتمع الإسلامي، لأنه دليل الطاعة والمتابعة، وصمام أمان المجتمع الإسلامي؛ لأن الخير كل الخير في اتباع شرع الله تعالى، والسير على منهاجه، ومخالفته أساس الخيبة والخسران، في الدنيا والآخرة.

(١) الكشاف للزمخشري: ٤/ ٣٤٩.
(٢) أخرجه: الترمذي في سننه: أبواب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي: ٣/ ٦٠٨، ح(١٣٢٧). وقال محققه: ضعيف.
(٣) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٤٠. وينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص: ٧٩٩.

المطلب الثاني
الأساس الثاني: وجوب الالتزام بتقوى الله تعالى

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾.

والتقوى كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "أن يطاع الله فلا يُعصي، ويُذكر فلا يُنسى، ويشكر فلا يُكفر"(١).

أمر الله تعالى في هذا الختام الكريم بتقواه، بعد أن نهى عن تقديم أي أمر أو فعل إلا بعد الرجوع إلى حكمه تعالى وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، ليكون هذا الأمر حافظا لما قد يكون من تجاوز في التوجيه الأول، وليكون سادًّا لما قد يكون من المرء من تقصير أو خلل.

كما أن في "عطف قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ تكملة للنهي عن التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ ليدل بذلك على أن الالتزام بعدم إبرام شيء إلا بإذن الله تعالى وإذن رسوله صلى الله عليه وسلم إنما هو من تقوى الله وحده(٢).

والمعنى: "واتقوا الله فإنكم إن اتقيتموه منعتكم التقوى عن التقدم المنهي عنه، وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه، فإن التقىّ حَذِرٌ، لا يتلبس بأمر إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا وتحَفَّظْ مما يلصق بك العار، فتنهاه أوّلا عن عين ما قارفه، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة"(٣).

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ أي: إن الله (سَمِيعٌ) لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، (عَلِيمٌ) بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات وفي ذكر هذين الاسمين الكريمين بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه، حَثٌّ على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال(٤).

وقد جاء هذا الختام الكريم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ كالعلة للنهي عن التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن فيه إشارة إلى التحذير والتخويف من المخالفة.

ولا ريب أن الالتزام بتقوى الله تعالى من أهم أسس بناء المجتمع الصالح، لأن الالتزام بها من شأنه أن ينشر الصلاح في المجتمع، وأن يحفظ أفراده من الفساد والانحلال؛ لأن التقوى في أبسط معانيها: طاعة لله تعالى، وقيام بذكره، وأداء لشكره عز وجل.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢١٨. بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢١٨. بتصرف يسير.
(٣) الكشاف للزمخشري: ٤/ ٣٥١. بتصرف يسير.
(٤) تيسير الكريم الرحمن: ص: ٧٩٩.

المطلب الثالث
الأساس الثالث: وجوب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ ﴾ [الحجرات: ٢ – ٥].

وهذا هو النداء الثاني للمؤمنين في هذه السورة الكريمة، "أُعيد زيادة في الشفقة عليهم، وحتى لا يتوهم متوهم أن المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا، وحتى يُعلم أن كل واحد من التوجيهين مقصود لذاته، وليس الثاني تأكيدا للأول"(١).

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة مجموعة من محاسن الآداب العالية الواجبة تجاه النبي صلى الله عليه وسلم، والتي تؤسس لقيام المجتمع الإسلامي على أسس إيمانية راسخة ومنها:

الأدب الأول: تحريم رفع أصواتهم فوق صوته صلى الله عليه وسلم إذا كلم بعضهم بعضا في مجلسه

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢].

وسبب نزول هذه الآية الكريمة: ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، قال: (كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ - قَالَ نَافِعٌ لاَ أَحْفَظُ اسْمَهُ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلاَفِي، قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢])، الآيَةَ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: «فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ»(٢).

علمهم الله تعالى الأدب العالي مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فحرَّم عليهم أن يرفعوا أصواتهم إذا كلم بعضهم بعضا في مجلسه؛ لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، وقلة التعظيم والتوقير له صلى الله عليه وسلم، كما أن منعهم من رفع أصواتهم في مجلسه صلى الله عليه وسلم منع من كثرة الكلام أيضا بحضرته.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢]: لا ترفعوا أصواتكم في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وبحضرته إذا كلم بعضكم بعضا، أي: لا ترفعوها متجاوزة صوت النبي صلى الله عليه وسلم، أي: متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بجهر معتاد. ولا مفهوم لهذا الظرف (فوق)؛ لأنه خارج مخرج الغالب؛ إذ ليس المراد أنه إذا رفع النبي صلى الله عليه وسلم صوته فارفعوا أصواتكم بمقدار رفعه، ولقد تحصل من

---

(١) التفسير الكبير: ٢٨/ ٩٣، بتلخيص.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب: باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) [الحجرات: ٢]: ٦/ ١٣٧، ح(٤٨٤٦).

هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتا عنده(١).

الأدب الثاني: تحريم رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم

أشار إليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢].

حيث استدل به بعض العلماء على كراهية رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم الشريف.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: "حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه؛ فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وكلام النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه، والله أعلم"(٢).

ولهذا قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: "وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام. كما كرهوا رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفا لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء"(٣).

الأدب الثالث: تحريم رفع الصوت في مخاطبته صلى الله عليه وسلم

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾.

حيث حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يرفعوا أصواتهم في حديثهم مع النبي صلى الله عليه وسلم كما يرفعوها في حديثهم مع بعضهم البعض.

والمعنى: "لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض، أي إذا كلمتموه صلى الله عليه وسلم وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، ويجب أن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرّب من الهمس الذي يضادّ الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز اسمه: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩](٤).

وغني عن البيان أن رفع الصوت وكذلك الجهر المحرَّمين هما في الكلام المسموح به شرعا مع النبي صلى الله عليه وسلم، أما ما يُقصد به الاستخفاف أو الاستهانة؛ فإنه يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله.

قال القرطبي: "وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر(٥)، والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، وردّه إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضا رفع الصوت الذي يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما كان منهم في الحرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك"(٦).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢١٩. بتصرف يسير.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٤٦. وينظر تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٤٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٣٠٦.
(٤) الكشاف: ٤/ ٣٥٢. بتصرف يسير، وينظر: التفسير الكبير: ٢٨/ ٩٤.
(٥) أجمعت الأمة سلفاً وخلفاً على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو كذبه أو عابه أو انتقصه أو عرض به أو استخف به ... إلخ بأي وجه كان من ممكن أو محال؛ فهو كافر يحب قتله. والمسألة مفصلة في: الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض: ٢/ ٢١١- ٢٥٣.
(٦) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٠٧.

الأدب الرابع: وجوب توقيره صلى الله عليه وسلم بألقابه الشريفة

أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

حيث أجاز بعض المفسرين أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾: المنع من دعائه باسمه أو كنيته كما يدعو بعضهم بعضاً بالاسم والكنية، ولكنْ دعاؤه بالنبوة والرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور: ٦٣](١).

أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]: أمر الله أن يُهَابَ نَبِيُّهُ صلى الله عليه وسلم، وأن يُبَجَّلَ وأن يُعَظَّمَ وأن يُسَوَّدَ". وعن مقاتل ابن حيان قال: "لا تُسَمُّوهُ إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شَرِّفُوهُ فقولوا: يا نَبِيَّ الله يا رسول الله"(٢).

** ثم ختم الله تعالى تلك الآداب العظيمة بقوله عز وجل: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾.

وهو تعليل لما قبله(٣)، وأصل (الحَبْط) من الحَبَطِ، وهو أن تكثر الدابة أكلا حتى ينتفخ بطنها، والمراد بحبوط الأعمال: بطلانها(٤). قال الزجاج: "لئلا تحبط أعمالكم"(٥).

والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم إذا كلَّم بعضكم بعضا في مجلسه، ولا تجهروا بأصواتكم في مخاطبته صلى الله عليه وسلم كما يجهر بعضكم لبعض؛ كراهة أو خشية أن يبطل ذلك الرفع وذلك الجهر ثواب أعمالكم، وأنتم لا تشعرون بهذا البطلان.

قال الواحدي: "وهذا يدل على أنه يجب أن يعظَّم النبي صلى الله عليه وسلم غاية التعظيم، فقد يأتي الإنسان الشيء اليسير في بابه، فيكون ذلك محبطًا لعمله، مهلكًا إياه وهو لا يعلم ذلك"(٦).

وظاهر الآية التحذير من حبط جميع الأعمال؛ لأن الجمع المضاف من صيغ العموم، ولا يكون حبط جميع الأعمال إلا في حالة الكفر؛ فمعنى الآية: أن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا النهي قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم يأتي على عظيم من صالحاته، أو يفضي به إلى الكفر؛ لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم يعوِّد النفس على الاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه وينقص توقير الرسول صلى الله عليه وسلم من النفس، وتتولى من سيئ إلى أشد منه، حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه صلى الله عليه وسلم، وذلك كفر؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾(٧).

** وتأكيدا لوجوب خفض الصوت في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم – وما يتبعه من خفض الصوت عند قبره الشريف -، وفي مخاطبته: مَدَحَ الله تعالى أصحاب هذا الأدب العظيم؛ فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٣].

---

(١) جامع البيان للطبري: ٢١/ ٣٢٨، والنكت والعيون للماوردي: ٥/ ٣٢٦، الكشاف: ٤/ ٣٥٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٠٦.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٨/ ٢٦٥٥، وتفسير ابن كثير: ٦/ ٨١.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٢٠.
(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص٨٢، والمفردات في غريب القرآن للراغب: ص: ٢١٦.
(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٣٢.
(٦) التفسير الوسيط للواحدي: ٤/ ١٥١.
(٧) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٢١، ٢٢٢.

ومعني: ﴿ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ ﴾: يخفضون أصواتهم، والغَضُّ: النّقصان من الطّرف، والصّوت[١].

ومعنى: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾: أخلصها للتقوى؛ كما يُمتحن الذهب بالنار، فيُخرج جيده، ويُسقط خبثه[٢].

والآية ترغيبٌ في الانتهاءِ عمَّا نُهوا عنه، جاء بعد الترهيب من الإخلال به[٣]. وهي مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأن التحذير الذي في قوله تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ ﴾ يثير في النفس سؤالا عن ضد حال الذي يرفع صوته في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أو في مخاطبته، فجاءت هذه الآية جوابا عن هذا السؤال المقدر في الذهن[٤].

والمعنى: إن الذين يخفضون أصواتهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مخاطبتهم له؛ إجلالا له، ومراعاة للأدب معه، أولئك الذين أخلص الله تعالى قلوبهم لتقواه وطاعته.

- وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ ﴾ بشارة عظيمة من الله تعالى لأولئك الغاضِّين أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث وعدهم بمغفرة ذنوبهم، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم مقداره أحد إلا الله تعالى.

** ومما ينبغي التنبيه إليه ههنا أن الله تعالى حين أوجب تلك الآداب العظيمة على المؤمنين تجاه النبي صلى الله عليه وسلم فقد أمره صلى الله عليه وسلم أيضا بالرأفة والرحمة، وجعله أكمل الخلق خلقا وسلوكا.

يقول الرازي: "واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبي صلى الله عليه وسلم وإكرامه وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أيضا بالرأفة والرحمة، وأن يكون أرأف بهم من الوالد، كما قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الحجر: ٨٨] وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨]، إلى غير ذلك؛ لئلا تكون خدمته صلى الله عليه وسلم كخدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر"[٥].

** وقد التزم الصحابة رضي الله عنهم بهذه الآداب العظيمة:

ففي رواية البخاري السابقة: (قال ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ)[٦].

وفي رواية أخرى للبخاري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ، مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ مُوسَى: فَرَجَعَ إِلَيْهِ المَرَّةَ الآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: " اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ)[٧].

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب: ص: ٦٠٧.
(٢) معاني القرآن للفراء: ٣/ ٧٠.
(٣) تفسير أبي السعود: ٨/ ١١٧.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٢٢. بتصرف.
(٥) التفسير الكبير: ٢٨/ ٩٤.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب: باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) [الحجرات: ٢]: ٦/ ١٣٧، ح(٤٨٤٦).
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب: باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) [الحجرات: ٢]: ٦/ ١٣٧، ح(٤٨٤٥).

** وزيادة في التأكيد على وجوب تلك الآداب مع النبي صلى الله عليه وسلم: ذكر الله تعالى ما فعله بعض الناس من رفع أصواتهم وندائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وذلك أن المناداة من وراء الحجرات فيها رفع الصوت وإساءة الأدب، والله قد أمر بتوقير رسوله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه(١).

فالآيتان الكريمتان بيان بالمثال لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الحجرات: ٢](٢)؛ حيث روي عن مجاهد وقتادة أنهما نزلتا في أعراب من بني تميم، قَدِمَ وفدهم على النبي صلى الله عليه وسلم، فدخلوا المسجد، ونادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته، أن اخرج إلينا، فإن مَدْحَنَا زَيْن وذَمَّنَا شَيْنٌ، وكانوا سبعين رجلاً، قَدِمُوا لفداء الذراري(٣).

وجاء الفعل ﴿يُنَادُونَكَ﴾ مسندا إلى جميعهم، فيجوز أن يكون تولاه بعضهم، وكان الباقون راضين؛ فكأنهم تولوه جميعا، ويجوز أن يكونوا نادوه جميعا(٤).

- وقوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾: الوراء: الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام. و(مِنْ) لابتداء الغاية، وللدلالة على أنّ المناداة نشأت من ذلك المكان، ولم يتوجه الإنكار عليهم من قِبَل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من الخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض، من غير قصد إلى جهة دون جهة(٥).

والحُجُرات: جمع حجرة، كالظلمات جمع ظلمة. والحُجْرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وجمعها: الحُجُرات - بضمتين -. والمراد: حُجُرات نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة(٦).

- وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾: أي: أكثرهم جهال بدين الله، واللازم لهم من حقك وتعظيمك؛ إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب. فنَفْيُ العقل عنهم مراد به عقل التأدب الواجب في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم. وجاء التعبير بالكثرة؛ لأن منهم من لم يناد النبي صلى الله عليه وسلم مثل ندائهم(٧).

- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾: الصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها، وهو حبس فيه شدّة ومشقة على المحبوس(٨).

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان: ٩/ ٥١٠.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٢٣.
(٣) هؤلاء هم بنو العنبر من تميم، جاءوا لفداء ذراريهم حين سباها عيينة بن حصن الفزاري في سريته التي بعثه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: غزوة عيينة بن حصن بني العنبر من بني تميم: ٢/ ٦٢١، ٦٢٢..
(٤) الكشاف: ٤/ ٣٥٧.
(٥) الكشاف: ٤/ ٣٥٧، والبحر المحيط: ٩/ ٥١٠، ٥١١.
(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص٤١٥، والكشاف: ٤/ ٣٥٧، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٠.
(٧) جامع البيان: ٢٢/ ٢٨٥، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١١٨، والتحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٢٥. باختصار
(٨) الكشاف: ٤/ ٣٥٨.

والمعنى: ولو ثبت صبرهم حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم، أي: لو انتظروا خروجك، ولم يعجلوا بالمناداة، لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورعاية جانبه الشريف، والعمل بما يستحقه من التعظيم والتبجيل[١].

وفي تعقيب هذا اللوم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾: إشارة إلى أنه تعالى لم يحص عليهم ذنبا فيما فعلوا، ولا عرض لهم بتوبة. والمعنى: والله شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس؛ لأن القوم كانوا جاهلين[٢].

وبهذا قررت هذه الآيات الكريمة جانبا مهما من جوانب الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ريب أن هذه الآداب أساسية في بناء المجتمع الإسلامي؛ لأنه لا يمكن بحال أن يقتدي أبناؤه بالكتاب والسنة دون أن يوقروا من أرسله الله تعالى بهما، ومن ثَمَّ فهي عامل أساسي في عملية التأسي والاقتداء به صلى الله عليه وسلم.

(١) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٧١.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٢٧.

المطلب الرابع
الأساس الرابع: وجوب التثبت من الأخبار

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ ﴾ [الحجرات: ٦ – ٨].

هذا هو النداء الثالث للمؤمنين في هذه السورة الكريمة، وقد تضمن بيانا لأدب من الآداب العظيمة التي يجب أن تتحقق بين المؤمنين؛ ليقوم المجتمع الإسلامي على أسس صحيحة قوية، تأبي التصدع أو الفشل؛ وهو: وجوب التثبت من الأخبار، وعدم الاستماع للإشاعات.

لأن قبول الأخبار دون تبيُّن أو تثبت من صحتها يمثل خطرا عظيما على أي مجتمع؛ فقد تكون الأخبار مكذوبة، وتحمل أغراضا خبيثة، فيُصَدَّقُ على أساسها الكاذب، ويُكَذَّبُ الصادق، أو يؤتمن على أساسها الخائن، ويُخَوَّنُ المؤتمن؛ فتكون سببا في العصف بأمن المجتمع واستقراره، وتفريق جمعه؛ وشق صفه.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات عدة تعود إلى حدث واحد، وهو أنها نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط رضي الله عنه لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم جابيا للزكاة من بني المصطلق.

ففي مسند الإمام أحمد من حديث الحارث بن أبي ضِرَار الخزاعي: (وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنَ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ، فَرِقَ[1]، فَرَجَعَ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْحَارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ، وَأَرَادَ قَتْلِي، فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ، فَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ إِذْ اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ وَفَصَلَ مِنَ الْمَدِينَةِ، لَقِيَهُمُ الْحَارِثُ، فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ، قَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ، وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً، وَلَا أَتَانِي فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "مَنَعْتَ الزَّكَاةَ، وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟" قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ، وَلَا أَتَانِي، وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ كَانَتْ سَخْطَةً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَسُولِهِ. قَالَ: فَنَزَلَتِ الْحُجُرَاتُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات: ٦] إِلَى هَذَا الْمَكَانِ: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ ﴾ [الحجرات: ٨])[2].

والذي فَزِع منه الوليد بن عقبة رضي الله عنه هو أن بني المصطلق خرجوا إليه ليَتَلَقَّوْه فهابهم، وظن أنهم يريدون قتله، وقد جاء ذلك مبينا في رواية أخرى عند الطبري، عن قتادة مرسلا، وفيها:

"وهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه نبيّ الله صلى الله عليه وسلم مُصدِّقا – جابيا للزكاة - إلى بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه، فهابهم، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره أنهم قد ارتدّوا عن الإسلام، فبعث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، وأمره أن يتثبَّت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه؛ فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم مستمسكون بالإسلام،

(١) أي: فزع منهم وهابهم.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٣٠/ ٤٠٤، ٤٠٥. ح(١٨٤٥٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٧/ ٥٥٥، وقال: "بِسَنَد جيد".

وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد، فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره الخبر، فأنزل الله عزّ وجلّ ما تسمعون"(١).

** ومما ينبغي التنبيه إليه ههنا:

أنه لا يصح أن يوصف الوليد بن عقبة رضي الله عنه بالفسق لا تصريحا ولا تلويحا؛ لأنه ليس في الآية ما يقتضي أنه تعمد الكذب، وقد اتفقت الروايات على أنه توهم وظن أن القوم خرجوا لقتله(٢).

ولهذا قال الفخر الرازي بعد أن ذكر الروايات في سبب النزول: "هذا جيد إن قالوا بأن الآية نزلت في ذلك الوقت، وأما إن قالوا بأنها نزلت لذلك السبب مقتصرة عليه فلا، بل نقول: هو نزل عاما لبيان التثبت، وترك الاعتماد على قول الفاسق، وغاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت، وهو مثل التاريخ لنزول الآية. وإن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بن عقبة شيء بعيد؛ لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقا، كيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الإيمان؟؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ [المنافقون: ٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠] إلى غير ذلك"(٣).

وزاد الطاهر بن عاشور فقال: "قلت: ولو كان الوليد بن عقبة رضي الله عنه فاسقا لما ترك النبي صلى الله عليه وسلم تعنيفه واستتابته.... واعلم أن جمهور أهل السنة على اعتبار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عدولا، وأن كل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به فهو من أصحابه"(٤).

** وبناء عليه: فقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أدبا عظيما من الآداب التي يجب أن يقوم عليها بنيان المجتمع ليبقى متماسكا قويا، وهو: التثبت من الأخبار، والحذر من الانسياق وراءها بغير تثبت.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾.

والفسوق: الخروج من الشيء والانسلاخ منه، يقال: فسقت الرطبة: خرجت عن قشرها. ويطلق الفاسق في الشرع على: كل خَارج عَن أَمر الله جلّ ثَنَاؤُهُ، وأعظم الفسوق الشّرك بالله جلّ وعز، وهو أعمّ من الكفر، وهو يقع بالقليل من الذّنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيرا، وأكثر ما يقال الفَاسِقُ لمن التزم حكم الشّرع وأقرّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فَاسِقٌ، فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠](٥).

وبناء عليه: فإنه لا ينال الوليد بن عقبة رضي الله عنه من إطلاق لفظ الفاسق في الآية الكريمة إلا المعنى اللغوي، وهو الخروج عن الأمر، لأنه خروج عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بظنه الذي توهمه، لا عن تعمد المخالفة أو الكذب.

كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ ولهذا قال الزمخشري: "وفي تنكير لفظي (فاسق) و(نبأ): ما يدل على العموم في الفساق والأنباء، كأنه قال: أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبأ. فتوقفوا فيه، وتطلّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق"(٦).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ٢٢/ ٢٨٨.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٢٩. باختصار.
(٣) التفسير الكبير: ٢٨/ ٩٩.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٢٩.
(٥) الكشاف: ٤/ ٣٦١، وغريب القرآن للسجستاني: ص: ٣٥٧، والمفردات في غريب القرآن: ص٦٣٦.
(٦) الكشاف: ٤/ ٣٦١. بتصرف يسير.

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا إن أخبركم فاسق بخبر ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: فتعرفوا وتفحصوا(١)، وقرئ (فتثبتوا)(٢)؛ من التثبت، أي: فتوقفوا واطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق، ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: حذارا من أن تصيبوا قوما ملتبسين بجهالة حالهم، ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ أي: فتصيروا - بسبب العجلة وترك التأني - على ما فعلتم في حقهم مغتمين غما لازما متمنين أنه لم يقع(٣).

*** ولا ريب أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ موجه ابتداء للمؤمنين المخبَرين- بفتح الباء-، كما أنه موجه للمؤمنين المخبِرين- بكسر الباء- فإنهم ليسوا بمعزل عن المطالبة بهذا التبيُّن فيما يتحملونه من الأخبار، وفي توخي الحذر من سوء العاقبة فيما يختلقونه من المختلقات(٤).

وفي هذا حماية وصيانة لأمن المجتمع من الجهتين، الجهة التي يأتي منها الخبر وتذيعه وتنشره، والجهة التي تتلقاه وتتصرف بناء عليه.

** ثم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى أهم طرق التبين فقال:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات: ٦ – ٨].

لما قال الله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] أي: فتعرفوا وتفحصوا، وتوقفوا واطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق، قال بعده: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٧]، أي: أن الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه فيكم مبيِّنٌ مُرشدٌ"(٥). وبالرجوع إلى سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فإنها بيان للقرآن.

- وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير على وجه الكناية؛ فإن كون رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يخبر عنه؛ فالمقصود هو تعليم المسلمين اتباع ما شرع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم(٦).

والمعنى: "واعلموا أن فيكم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[الأحزاب: ٦]"(٧).

---

(١) تفسير أبي السعود: ٨/ ١١٨.
(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبتوا) بثاء مثلثة فموحدة ثم مثناة فوقية، وقرأ باقي العشرة (فتبينوا) بموحدة ثم مثناة تحتية فنون، من البيان. ينظر: النشر لابن الجزري: ٢/٢٥١.
(٣) ينظر: الكشاف: ٤/ ٣٦١، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٢، ولباب التأويل للخازن: ٤/ ١٧٨، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١١٨.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٣٣. بتصرف يسير
(٥) التفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٢. باختصار
(٦) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٣٤.
(٧) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٤٨.

- وقوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾: العَنَتُ: هو الفساد والهَلاَكُ[1]. والمعنى: "لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى فساد أمركم وحرجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١﴾ [المؤمنون: ٧١]"[2].

- وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾: أي: ولكن الله حبب الإيمان إلى نفوسكم وحسَّنه في قلوبكم، وكرَّه إليكم كل ما هو من جنس الفسوق ومن جنس العصيان. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ أي: أولئك الموصوفون بما ذُكِر هم المستقيمون على طريق الحق[3].

- وقوله تعالى: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾: أي: ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان، وأنعم عليكم هذه النعمة فضلا منه، وإحسانا ونعمة منه أنعمها عليكم، والله ذو علم بالمحسن منكم من المسيء، ومن هو لنعمه وفضله أهل، ومن هو لذلك غير أهل، وذو حكمة في تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما شاء من قضائه[4].

وبهذا التوجيه الإلهي العظيم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى الطريقة المثلى في استقبال الأخبار استقبالا صحيحا، قائما على التروي والتثبت والتبين، والرجوع إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم للاهتداء بهديه والاقتداء بسنته، فإن كانت الأخبار صحيحة ولا تخالف ما شرعه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم قُبِلت، وإلا رُدَّت في وجه قائلها، وقُتِلت في مهدها؛ لأنها إذا استُقْبِلت بجهل وأُشِيعت طارت في المجتمع كالهواء - لا سيما في عصرنا هذا عصر التطور التقني الرهيب، الذي صار العالم فيه كالقرية الصغيرة -؛ فكانت معول هدم لأمنه واستقراره، وأداة لظلم أناس لا ذنب لهم، ولا ينفع بعد ذلك الندم. وبهذا التشريع الإلهي - على مستوى الفرد والمجتمع - يعيش المجتمع الإسلامي في أمن واطمئنان واستقرار.

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٣٤.
(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٤٨.
(٣) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٤٨، وفتح القدير للشوكاني: ٥/ ٧١.
(٤) جامع البيان: ٢٢/ ٢٩٠.

المطلب الخامس

الأساس الرابع: وجوب الإصلاح بين المتخاصمين، وإعانة المظلومين، ودفع عدوان الباغين

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات: ٩].

لما حذر الله المؤمنين في الآيات السابقة من قبول الأخبار من الفساق دون تثبت وتبين، عقب ذلك ببيان الحكم فيما يترتب على قبول الأخبار المكذوبة من تخاصم وتباغض وتقاتل، فقال فإن اتفق أنكم بنيتم على قول من يوقع بينكم، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين، فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تقلع عن بغيها إلى أمر الله ورسوله(١).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما:

عن أنس رضي الله عنه قال: (قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، «فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَكِبَ حِمَارًا، فَانْطَلَقَ المُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ»، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩])(٢).

- قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾: التعبير بـ (إِنْ) للإشعار بأنه لا يصح أن يقع قتال بين المؤمنين، فإن وقع على سبيل الندرة، فعلى المسلمين أن يعملوا بكل وسيلة على إزالته(٣).

والطائفة: تتناول الواحد والاثنين والجمع(٤). فإن قيل: ما وجه قوله ﴿ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ والقياس: اقتتلتا، لأنه عائد على المثنى: ﴿ طَآئِفَتَانِ ﴾، فالجواب: أنه مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس(٥).

وقال تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ بالتثنية على اللفظ، ولم يقل (بينهم) بالجمع على المعنى، كما قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾، وذلك لأنه عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة، وكل أحد برأسه يكون فاعلا فعلا، فقال: (اقتتلوا) وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة، وإلا لم يتحقق الصلح فقال: (بينهما) لكون الطائفتين حينئذ كنفسين(٦).

والخطاب في قوله تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ لأولى الأمر من المسلمين، والأمر فيه للوجوب، أي: وإن حدث قتال بين طائفتين من المؤمنين، فعليكم يا أولى الأمر من المؤمنين أن تتدخلوا بينهما بالإصلاح، عن طريق بذل النصح، وإزالة أسباب الخلاف(٧).

---

(١) التفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٥. بتصرف.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الصلح، باب: ما جاء في الإصلاح بين الناس: ٣/ ١٨٣، ح(٢٦٩١). ومسلم في صحيحه: كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وصبره علي أذى المنافقين: ٣/ ١٤٢٤،ح (١٧٩٩).
(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي: ١٣/ ٣٠٨.
(٤) لسان العرب لابن منظور: ٩/ ١٦٠، ١٦١.
(٥) الكشاف: ٤/ ٣٦٥، والتفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٥، الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٦.
(٦) التفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٦.
(٧) التفسير الوسيط لطنطاوي: ١٣/ ٣٠٨.

- وقوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾

البغي: التطاول والفساد، والطائفة الباغية: هي التي تعدل عن الحق، وما عليه أئمة المسلمين وجماعتهم(١). والفيء: الرّجوع إلى حالة محمودة، والمعنى: حتى ترجع إلى أمر الله(٢).

ومعنى الآية: وإذا تقاتلت طائفتان من المسلمين، وجب على المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهما ويدعوهما إلى حكم الله ورسوله، فإن حصل بعد ذلك تَعَدٍّ من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، ولا دخلت فيه، وجب على المسلمين أن يقاتلوا تلك الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى.

ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بين الطائفتين المقتتلتين فقال: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ أي: واعدلوا إن الله يحب العادلين، فيجازيهم أحسن الجزاء(٣).

ومن جميل رحمة الله تعالى بالمجتمع الإسلامي أن لفظ (الطائفة) يتناول في عرف اللغة الواحد والاثنين والجمع، وبناء عليه: فإنه يجب على المجتمع الإسلامي أن يصلح بين المتخاصمين مهما قلَّ عددهم، وأن يدفع الباغي، وأن يعين المظلوم ويرفع عنه الظلم.

ففي هذا الأساس حماية المجتمع من الشقاق والخلاف، والتفرق والتصدع والتشرذم، الذي يمكن أن يعصف بأمنه واستقراره، ويعصف بحاضره اجتماعيا واقتصاديا؛ نتيجة انتشار العداوات وفشو الظلم والتقاتل. وهذا تشريع إسلامي فريد، يحفظ للمجتمع وحدته وأمنه واستقراره.

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٣٥، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٦.
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٣٥، والمفردات في غريب القرآن: ص٦٥٠.
(٣) المحرر الوجيز لابن عطية: ٥/ ١٤٨، الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣١٦، ولباب التأويل للخازن: ٤/ ١٧٩، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٠، وفتح القدير للشوكاني: ٥/ ٧٤، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص٨٠٠.

المطلب السادس
الأساس السادس: المحافظة على أخوة الإيمان

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وهو استئناف مقرر لمضمون ما قبله من الأمر بوجوب الإصلاح بين المتخاصمين(١). فإنه لما قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [الحجرات: ٩] كان لظان أن يظن أو لمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة، فلا يؤمر بالإصلاح، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافُه فلا يجب الإصلاح؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أي: وإن لم تكن الفتنة عامة، وإن لم يكن الأمر عظيما كالقتال، بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا في الإصلاح(٢).

- يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي: في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قال أبو عثمان البصري: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب(٣).

- ويقول تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾: أي: فأصلحوا بين كل مسلمين تخاصما؛ قال أبو عبيدة: أي أصلحوا بين كل أخوين، فهو آت على الجميع(٤).

قال الزمخشري: "فإن قلت: فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع؟ قلت: لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين"(٥).

وقال الطاهر بن عاشور: "لما تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين كمال التقرر عدل عن أن يقول: فأصلحوا بين الطائفتين، إلى قوله: ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾، فهو وصف جديد نشأ عن قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾، فتعين إطلاقه على الطائفتين، فليس هذا من وضع الظاهر موضع الضمير، فتأمل"(٦).

والمخاطب بقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ جميع المؤمنين، فيشمل الطائفتين الباغية والمبغي عليها، ويشمل غيرهما ممن أمروا بالإصلاح بينما ومقاتلة الباغية. ومعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾: ترجى لكم الرحمة من الله فتجري أحوالكم على استقامة وصلاح. وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر قبلها بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن التعامل بين الإخوة الرحمة؛ فيكون الجزاء عليها من جنسها(٧).

ومما يدل على عناية الإسلام بالمحافظة على أخوة الإيمان: "أن الاقتتال والبغي لم يزيل عن الطائفتين اسم الإيمان، فقد سماهما الله تعالى إخوة مؤمنين"(٨). وبهذا: "عقد الإيمان عَقَدَ بين أهله من النسب ما لا يَنقص عن نسب الأخوة الجسدية"(٩).

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: ١٣/ ٣٠٩.
(٢) التفسير الكبير: ٢٨/ ١٠٧.
(٣) الكشف والبيان للثعلبي: ٩/ ٧٩، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٢.
(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/ ٩، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٣.
(٥) الكشاف: ٤/ ٣٦٧.
(٦) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٥.
(٧) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٥..
(٨) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٣، بتصرف.
(٩) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٣، ٢٤٤. بتصرف.

** وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم أشد الحرص على تأكيد تلك الأخوة الإيمانية التي لا يمكن للمجتمع أن تقوم له قائمة بدونها:

- حيث قال صلى الله عليه وسلم: (الـمُسْلِمُ أَخُو الـمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اَللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ)[١].

- وقال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[٢].

- وقال صلى الله عليه وسلم: (الـمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ)[٣].

- وقال صلى الله عليه وسلم: (لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ) [٤].

وبهذه الآداب العالية في المحافظة على أخوة الإيمان تقوى أواصر المحبة بين أفراد المجتمع، ولا يزدادون على مرور الأيام إلا تماسكا، والاتحاد قوة، وبها يُحفظ أبناء المجتمع من أن ينفرط عقدهم، أو تذهب وحدتهم، أو يتفرق صفهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: المظالم والغصب، باب: لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه: ٣/ ١٢٨، ح(٢٤٤٢)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم: ٤/ ١٩٩٩، ح(٢٥٨٥)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: المظالم والغصب، باب: نصر المظلوم: ٣/ ١٢٩، ح(٢٤٤٦)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله: ٤/ ١٩٨٦، ح(٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المطلب السابع
الأساس السابع: وجوب تطهير المجتمع من مساوئ الأخلاق (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغِيبة)

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ [الحجرات: ١١ – ١٢].

لما أشارت الآية السابقة إلى وجوب الأخوة الإيمانية إجمالا، جاءت هاتان الآيتان الكريمتان للتأكيد على أهم ما يحفظ تلك الأخوة ويديمها ويقويها، وهو تطهيرها من مساوئ الأخلاق التي إن وجدت عصفت بتلك الأخوة وأفسدت المجتمع وضيعته وفرقت شمله، وشقت صفه، وذلك على النحو الآتي:

أولا: تحريم السخرية:

وفيها يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾.

وهذا هو النداء الرابع للمؤمنين في هذه السورة الكريمة، وفي تكراره من معاني الرحمة والشفقة بالمؤمنين ما لا يخفى. والسخرية: هي الاستهزاء، قال الأخفش: سَخِرْتُ منه وسَخِرْتُ به، وضَحِكْتُ منه وضَحِكْتُ به، وهَزِئْتُ منه وهَزِئْتُ به، كُلٌّ يقال[١].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزوله عدة روايات كلها بغير إسناد، فلا يعتمد عليها[٢]؛ قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله عم بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض من جميع معاني السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن، لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك"[٣].

و(القوم) في اللغة للرجال خاصة، وسموا قوما؛ لأنهم القُوّام بأمور النساء، وقد يدخل فيهم النساء مجازا[٤].

يقول الزمخشري في بيان السر في التعبير بالجمع (قوم، نساء): "وإنما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة على الإفراد؛ لأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله، ولا يقوم بما عليه من النهي والإنكار، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به، فيؤدى ذلك - وإن أوجده واحد- إلى تكثر السخرية، وانقلاب الواحد جماعة وقوما"[٥].

والمعنى: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، يحرم عليكم أن يهزأ رجال مؤمنون من رجال مؤمنين، لعل المسخور منه خير من الساخر عند الله تعالى، وهذا تعليل للنهي، ويحرم عليكم أن يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى المهزوء منهنّ أن يكنّ خيرا من الهازئات[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٤

(٢) قيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس عَيَّر رجلا بأمه. وقيل: نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم عَيَّرْنَ أم سلمة بالقصر. وقيل غير ذلك. ينظر: أسباب النزول للواحدي: ص٤٠٩، والكشف والبيان: ٩/ ٨٠، ٨١، ٥٣٠، ومعالم التنزيل: ٤/ ٢٦٠، ٢٦١.

(٣) جامع البيان للطبري: ٢٢/ ٢٩٨.

(٤) الكشاف: ٤/ ٣٦٨، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٤.

(٥) الكشاف: ٤/ ٣٦٨.

(٦) جامع البيان: ٢٢/ ٢٩٧، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: ٢/ ٢٩٧.

- ومعنى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ و ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾: أي يجب أن يعتقد كل مؤمن أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرا من الساخر، لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن عند الله: هو خلوص الضمائر وتقوى القلوب، وعلمهم من ذلك بمعزل، فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رَثَّ الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبق في محادثته، فلعله أخلص ضميرا وأتقى قلبا ممن هو على ضدّ صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقَّره الله، والاستهانة بمن عظمه الله[١].

وفي الحديث: (إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)[٢].

وهذا حديث عظيم يترتب عليه أن لا يُقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة: يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر الله له بسببه، فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية. ويترتب عليه عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة، بل تُحتقر وتُذم تلك الحالة السيئة لا تلك الذات المسيئة[٣].

ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شُرَحْبِيل: لو رأيت رجلا يرضع عَنْزًا فضحكتُ منه: خشيتُ أن أصنع مثل الذي صنعه. وعن عبد الله بن مسعود قال: البلاء مُوَكَّل بالقول؛ لو سخرتُ من كلب خشيتُ أن أَحَوَّل كلبا[٤].

ثانيا: تحريم اللمز:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

واللمز: العيب والغَضُّ من الإنسان[٥]. وهو ذكر ما يعدُّه الذاكر عيبا لأحد مواجهة، فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب، وكان شائعا بين العرب في جاهليتهم[٦].

والمعنى: ويحرم عليكم أن يَعيب بعضكم بعضًا، أو أن يغض منه.

قال الطبري: "وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ فجعل اللامز أخاه لامزا نفسه؛ لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره، وطلب صلاحه، ومحبته الخير له. وهذا نظير قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩] بمعنى: ولا يقتل بعضكم بعضا؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[٧]،[٨].

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٦٩، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: البر الصلة، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله: ٤/ ١٩٨٧، ح(٢٥٦٤) مكرر. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٦، ٣٢٧.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٦٩، والجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٢٤.

(٥) معاني القرآن للفراء: ٣/ ٧٢، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٣٦.

(٦) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٨.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم: ٤/ ١٩٩٩، ح(٢٥٨٥)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٨) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص٤١٦، والتفسير الوسيط للواحدي: ٤/ ١٥٥، والتحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٤٩.

ثالثا: تحريم التنابز بالألقاب:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

والتنابز: التفاعل من النَّبْز، أي: نَبْزُ بعضهم بعضا، والألقاب: جمع اللقب، والمراد بها في الآية الألقاب المكروهة، بقرينة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾، أي لا تَتَداعوا بالألقاب المكروهة(١).

قيل هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق يا منافق، يا كافر، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي، يا نصراني؛ يدعوه بما كان عليه من الشرك(٢).

قال الطبري: "والأولى أن يقال: إن الله تعالى نهى المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب؛ والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعمّ الله بنهية ذلك، ولم يخصص به بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن يَنْبِزَ أخاه باسم يكرهه، أو صفة يكرهها"(٣).

- وقوله تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾: أي بئس الذكر للمؤمنين بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتهارهم به، فإن (الاسم) ههنا بمعنى الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، والمراد به: إما تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين، أو الدلالة على أن التنابز فسق، والجمع بينه وبين الإيمان قبيح(٤).

- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾: أي: ومن لم يتب عما نهي عنه من المنهيات المتقدمة، فأولئك هم الظالمون؛ "لارتكابهم ما نهى الله عنه وامتناعهم من التوبة، فظلموا من لقبوه، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم"(٥).

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سِبَابُ الـمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)(٦).

رابعا: تحريم الظن السيئ فيمن ظاهره الصلاح:

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

وهذا هو النداء الخامس للمؤمنين في هذه السورة الكريمة، يحمل توجيهات أخلاقية عظيمة، لتطهير المجتمع من الظنون الباطلة، وحمايته من آثارها المدمرة.

وقد تضمن "تأديبا عظيما يبطل ما كان فاشيا في مجتمع الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة؛ لأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة، والمكائد، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرا من اعتداءٍ مظنون ظنا باطلا، وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة؛ قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠]، ولهذا حذَّر النبي صلى الله عليه وسلم من الظن السيء فقال: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا)(٧)،(٨).

---

(١) جامع البيان: ٢٢/ ٢٩٨، ٢٩٩.
(٢) جامع البيان: ٢٢/ ٣٠٠- ٣٠٢، والتفسير الوسيط للواحدي: ٤/ ١٥٥.
(٣) جامع البيان: ٢٢/ ٣٠٢، باختصار.
(٤) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٢١، باختصار.
(٥) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٧٦، باختصار.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر: ١/ ١٩، ح(٤٨).
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر: ٨/ ١٩، ح(٦٠٦٤).
(٨) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٥١، بتصرف.

والاجتناب: افتعال من جَنَّبَه وأجنبه، يقال: جَنَّبَه الشر: إذا أبعده عنه[١]. والمراد بـ (الظن) هنا: الظن المتعلق بأحوال الناس، والمنهي عنه: هو ظن السوء فيمن ظاهره الصلاح[٢].

قال القرطبي: "قال علماؤنا: فالظن هنا هو التهمة، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يُتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها: أن كل ما لم تُعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب. وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأُونِستْ منه الأمانة في الظاهر، فظَنُّ الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهر من الناس بتعاطي الرِّيَبِ والمجاهرة بالخبائث"[٣].

خامسا: تحريم التجسس:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

والتجسس: هو البحث عن الأخبار بوسيلة خفية، وهو مشتق من الجَسّ، ومنه سمي الجاسوس[٤]. والمعنى: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فحَمِّدوا أو ذُمُّوا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره[٥].

** وقد حذَّر النبي صلى الله عليه وسلم من التجسس تحذيرا شديدا؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ)[٦].

وعن ثَوْبَانَ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللهِ، وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ)[٧].

لقد حرم الإسلام التجسس لما له من عواقب سيئة وآثار وخيمة على الفرد والمجتمع؛ لأنه يفسد العلاقات الطيبة، ويبعث مكانها العداوة والحقد والضغينة؛ لأن المتجسِّس يطلع على أمور تسوءه كانت خافية، فتفسد علاقته بالطرف الآخر، ويزداد الأمر سوءا إذا علم المتجسَّس عليه، فتفسد العلاقات وتتقطع أواصر الأخوة، ويسعى كل منهما في الانتقام من الآخر.

سادسا: تحريم الغِيبة:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

نهى الله عز وجل في هذا النص الكريم عن أحد الأخلاق الذميمة، التي من شأنها أن تمزق شمل المجتمع الإسلامي، وأن توقد فيه نار الكراهية والشحناء، ألا وهو: الغِيبة.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٣٧٢.
(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ١٥١، والتحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٥١
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٣٣١/١٦، ٣٣٢.
(٤) غريب القرآن للسجستاني: ص١٥٦، والمفردات في غريب القرآن: ص١٩٦، والتحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٥٣.
(٥) جامع البيان: ٢٢/ ٣٠٤.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن: ٤/ ٣٧٨، ح(٢٠٣٢)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٧) أخرجه أحمد في مسنده: ٣٧/ ٨٨، ح(٢٢٤٠٣)، وقال محققه صحيح لغيره.

والغِيبة: أن يُذْكَرَ الإنسان في غيبته بسوء، وإن كان فيه هذا السوء. فإن ذُكِر بما ليس فيه فذلك البُهْتَانُ(١).

والمعنى: ولا يحل لأحدكم أن يذكر أخاه المسلم بما يكره لو سمعه، من خَلْقه أو خُلُقه أو دينه أو أفعاله أو غير ذلك. وقد رُخِّص في الغِيبة في مواضع منها: في التجريح في الشهادة، والرواية، والنكاح، وفي التحذير من أهل الضلال، وما شابه ذلك(٢).

وقد حذر الله تعالى من ذلك الخلق السيء بأشد عبارة، ووصف فعله بأبشع الأوصاف؛ فقال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وهذا "تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب على أفحش وجه وأشنعه طبعا وعقلا وشرعا"(٣).

حيث "شَبَّه الله تعالى الغِيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه. قال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغِيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا. واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة؛ لأن عادة العرب بذلك جارية"(٤).

** ولقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم حرمة الغِيبة في كثير من أحاديثه، ومن ذلك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟)، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ) قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: (إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ)(٥).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ)(٦).

لقد حرَّم الإسلام الغِيبة ليحفظ أعراض المؤمنين، وليصون كرامتهم في غيبتهم، ليؤسس بهذا لمجتمع آمن مطمئن، يسوده الاحترام المتبادل وصون الحرمات، والمحافظة على الأعراض.

وبهذا التشريع الإلهي قررت الآيات الكريمة تحريم أمهات الأخلاق الرذيلة (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغِيبة) ليتطهر المجتمع الإسلامي من مساوئ الأخلاق، ويتحلى بمحاسن الأخلاق – والتي تكفلت ببيانها آيات أخر في سور أخرى -؛ فإن التطهر من الأخلاق الرذيلة والتخلق بالأخلاق الحسنة أساس عظيم في قيام المجتمع الفاضل ونجاحه؛ لأنها السلوك العملي على تآزر أبنائه، ووحدة صفهم، وقوة جمعهم، كما أنها التطبيق العملي لسلامة عقيدته، وصحة عبادته، ثم هي في النهاية دليل واقعي على مدى رقيه وتحضره.

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٣٧، والجامع لأحكام القرآن: ٣٣٤/١٦، والمفردات للراغب: ص٦١٧.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: ٢/ ٢٩٧، ٢٩٨.
(٣) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٣٣٥/١٦، وينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٢/ ٢٩٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة: ٤/ ٢٠٠١، ح(٢٥٨٩).
(٦) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب في الغيبة: ٤/ ٢٦٩، ح(٤٨٧٨).

المطلب الثامن
الأساس الثامن: الالتزام بتقوى الله تعالى

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

هذا الختام الكريم معطوف على ما سبق من الأوامر والنواهي، أعاد الله تعالى فيه الأمر بتقواه بعد الأمر بها قريبا قبل آيتين في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠]؛ فهو ينضم إليه تأكيدا على ذلك الأساس العظيم واهتماما بأمره؛ لأنه لولا أن التقوى ضرورية للمؤمن ما أعاد الله تعالى الأمر بها؛ لأنها ملاك الأمر كله، ومحلها القلب، وإذا صلح القلب صلح سائر العمل.

يقول صلى الله عليه وسلم: (أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ)(١). ويقول صلى الله عليه وسلم: (لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)(٢).

فأهل التقوى هم الذين يتصفون بكل خلق حسن، ويتطهرون من كل خلق سيئ.

والمعنى: واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما صدر عنكم من قبل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ إي: مبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة؛ حيث يجعل التائب كمن لم يذنب، ولا يخص ذلك بتائب دون تائب، بل يعم الجميع وإن كثرت ذنوبهم"(٣).

ولا ريب أن التزام أفراد المجتمع بتقوى الله تعالى وشيوعها بينهم من أقوى عوامل قوته ورسوخه وقيام حضارته، لأن التقوى ليست شعارا نظريا، وإنما هي التطبيق العملي لتعاليم الإسلام في الدين والحياة؛ فأهلها أهل صدق وعمل وإحسان وإتقان وإبداع، وهؤلاء هم سواعد المجتمع، وبناة حضارته التي لا تقوم بدونهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: ١/ ٢٠، ح(٥٢).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله: ٤/ ١٩٨٦، ح(٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٢.

المطلب التاسع

الأساس التاسع: إرساء مبدأ المساواة في الإنسانية، وميزان التفاضل في الإسلام

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات: ١٣].

- أما إرساء مبدأ المساواة في الإنسانية:

فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾، والمراد بالذكر والأنثى: إما آدم وحواء عليهما السلام، أو كل أب وأم(١).

والشعوب: جمع شِعْب، وهو العدد الكثير من الناس، يجمعهم في الغالب أصل واحد، والقبائل: جمع قبيلة وتمثل جزءا من الشِّعب، إذ إن الشِّعب مجموعة من القبائل، والشِّعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشِّعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. وسميت الشعوب بذلك، لأن القبائل تشعبت منها(٢).

وقد أرسى الله تعالى في هذا النص الكريم مبدأ المساواة في الإنسانية؛ حيث بين أنه عز وجل خلق الناس من ذكر وأنثى، هما آدم وحواء، أو كل أب وأم، وجعلهم شعوبا وقبائل، فما من الناس أحد إلا وهو يدلى بمثل ما يدلى به الآخر سواء بسواء، ثم بيّن سبحانه الحكمة من هذه المساواة في الإنسانية فقال: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ أي: ليحصل بينكم التعارف والتآلف لا التناكر والتناحر، وليحصل بينكم التناصر لا التنافر والتفاخر؛ لأنه لا وجه للتفاخر والتفاضل في الأنساب؛ لأن جميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالدين فقط، وطاعة الله تعالى ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم(٣).

- وأما إرساء ميزان التفاضل في الإسلام:

فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾.

حيث جاء هذا النص الكريم تعليلا للنهى عن التفاخر بالأنساب وغيرها من أمور الدنيا، وقد حدد الله تعالى فيه ميزان التفاضل عنده سبحانه؛ فقرر أنه التقوى؛ فمهما كان المرء ذا حسب ونسب، ومهما كان غنيا ذا منصب، فإن كل ذلك لا قيمة له في ميزان العبد عند الله تعالى، إنما الرفعة والتكريم والعلو عنده عز وجل يكون بالتقوى فحسب.

"فالتقوى هي المراعى عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم، دون الحسب والنسب؛ لأن الناس بعمومهم كفارا كانوا أو مؤمنين يشتركون فيما يفتخر به المفتخر غير الإيمان والكفر، والافتخار إن كان بسبب الغنى، فالكافر قد يكون غنيا، والمؤمن فقيرا وبالعكس، وإن كان بسبب النسب فالكافر قد يكون نسيبا، والمؤمن قد يكون عبدا أسود وبالعكس، فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون، وشيء من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى(٤).

---

(١) الكشاف: ٤/ ٣٧٦. والتفسير الكبير: ٢٨/ ١١٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣٤٢/١٦، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٣.

(٢) الكشاف: ٤/ ٣٧٥، والجامع لأحكام القرآن: ٣٤٣/١٦، ٣٤٤.

(٣) ملخص من: الكشاف: ٤/ ٣٧٦، والتفسير الكبير: ٢٨/ ١١٢، والجامع لأحكام القرآن: ٣٤٢/١٦، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٣، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٣٦٠، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص٨٠٢.

(٤) الكشاف: ٤/ ٣٧٦، والتفسير الكبير: ٢٨/ ١١٣، والجامع لأحكام القرآن: ٣٤٥/١٦، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٣، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٣٦٠، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص٨٠٢.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾: أي: عليم بكل أحوالكم، خبير بما تسرون وما تعلنون، لا تخفى عليه من ذلك خافية(١).

** وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على إرساء هذين المبدأين العظيمين في كثير من أحاديثه الشريفة:

ومن ذلك: (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيٍّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيٍّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ»، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا)(٢).

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)(٣).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ(٤)، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ)(٥).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ؟"، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ)(٦).

وبهذا التشريع العظيم سبق الإسلام كل القوانين الوضعية، في إرساء مبدأ المساواة بين البشر، وزاد عليها بأن جعل معيار التفاوت بين المسلمين هو التقوى، لا الحسب ولا النسب ولا المال ولا الجاه ولا السلطان، وزاد عليها أيضا بأن جعل ذلك جزءا من عقيدة المؤمن، لا تصح بدونه.

والإسلام يؤسس بهذا لمجتمع راقٍ قوي متماسك تسود فيه العدالة والمساواة في الحقوق الإنسانية، وتُمحى منه كل صور الطبقيةً والتمييز والازدراء، ولا تكون العبودية فيه إلا لله تعالى وحده، وعلى درجة التقوى في تلك العبودية يكون الفضل عند الله تعالى. وهذا أساس عظيم في قيام المجتمع الصالح، ومن أعظم عوامل قوته.

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي: ٣/ ٣٥٧، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٣، وفتح القدير: ٥/ ٧٩، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص٨٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) [يوسف: ٧]: ٦/ ٧٦، ح(٤٦٨٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله: ٤/ ١٩٨٧، ح(٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أي: كِبْر الجاهلية. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الجزري: ٣/ ٦٩.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه: أبواب النوم، باب في التفاخر بالأحساب: ٤/ ٣٣١، ح(٥١١٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال محققه: حديث حسن.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده: ٣٨/ ٤٧٤، ح(٢٣٤٨٩)، عن أَبِي نَضْرَةَ رضي الله عنه، وقال محققه: إسناده صحيح.

المطلب العاشر
الأساس العاشر: وجوب التحقق بالإيمان

يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾ [الحجرات: ١٤ – ١٦].

لما ذكر الله سبحانه أن أكرم الناس عنده عز وجل أتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان قال منكرا على الأعراب الذين ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

والمحققون من المفسرين على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية لم يكونون منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه، فأُدبوا في ذلك، حيث أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي: لا تقولوا آمنا، لأنكم لم تتحققوا بالإيمان، ولكن قولوا: استسلمنا خوف القتل والسبي.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في بني أسد بن خزيمة[١]، وكانوا حديثي عهد بالإسلام، ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد، فأُدبوا وأُعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعدُ، ولو كانوا منافقين لعُنفوا وفُضحوا، وإنما قال الله تعالى لهم تأديبا[٢]: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعدُ؛ "فأخبر أن حقيقة الإيمان التصديق بالقلب، والإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان، ولا يكون إيمانا دون التصديق بالقلب والإخلاص"[٣].

قال الطاهر بن عاشور: "ونَفْيُ الإيمان عنهم في قوله تعالى: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ ليس انتفاء وجود تصديق باللسان، ولكن انتفاء رسوخه وعقد القلب عليه؛ إذ كان فيهم بقية من ارتياب كما أشعر به مقابلته بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾"[٤].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئا[٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ أي: إن الله بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب، رحيم بليغ الرحمة لهم[٦].

ولما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا ولم يتحققوا بالإيمان الكامل في قلوبهم بيَّن المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان الكامل عليهم، فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ أي: إنما المؤمنون كاملوا الإيمان الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يدخل قلوبهم شيء من الشك، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم

(١) جامع البيان للطبري: ٢٢/ ٣١٣، ٣١٤.
(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٦٤. باختصار
(٣) معالم التنزيل: ٤/ ٢٦٨.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٦٥.
(٥) غريب القرآن لابن قتيبة: ص٤١٦، والمفردات في غريب القرآن: ص٧٤٩.
(٦) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٨٠.

في طاعته وابتغاء مرضاته، ويدخل في الجهاد الأعمال الصالحة التي أمر الله بها، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤديه كما أمر الله سبحانه، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: أولئك الجامعون لهذه الصفات، هم الصادقون في قولهم والمتصفون بالإيمان الكامل والدخول في عداد أهله، لا من ادعوا الإيمان ولم يتحققوا به(١).

ثم أدَّب الله تعالى أولئك الأعراب أدبا آخر فقال: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، أي: قل لهم يا نبي الله: أتخبرون الله بما في ضمائركم؟ والتعليم ها هنا بمعنى الإعلام(٢)، أي: أتخبرونه بذلك حيث قلتم: (آمنا) والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر؛ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدعونه من الإيمان. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية(٣).

ولا ريب أن التحقق بالإيمان اعتقادا وقولا وعملا هو الأساس الأعظم من أسس بناء المجتمع الإسلامي، وأهله هم الذين يبنون ويشيدون، ويساهمون في النهضة والازدهار، أما أولئك الذين يكتفون بمجرد القول باللسان، دون الاعتقاد والعمل بالأركان، فإن ضررهم على المجتمع أعظم من نفعهم، لأنهم لم يتحققوا بالإيمان الذي يوجههم ويقودهم، ويضمن لهم بمنهجه الفلاح في الدنيا والآخرة.

(١) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٦٠، وفتح القدير: ٥/ ٧٩، باختصار.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٦٣.
(٣) فتح القدير: ٥/ ٧٩، باختصار. وينظر في تفسير هذه الآيات: الكشاف: ٤/ ٣٧٦، والتفسير الكبير: ٢٨/ ١١٣، والجامع لأحكام القرآن: ٣٤٩/١٦، ٣٥٠، ومدارك التنزيل للنسفي: ٣/ ٣٥٧، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٣، ١٢٤، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص٨٠٢.

المطلب الحادي العاشر

الأساس الحادي عشر: تحريم المَنِّ بالإسلام، ووجوب نسبة الفضل لله تعالى

يقول الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات: ١٧].

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة ادعاء بعض الأعراب الإيمان ولم يكونوا قد تحققوا به، وما ردَّ به سبحانه عليهم؛ ذكر في هذه الآية خلقا سيئا آخر وقع منهم، لعدم تحققهم بالإيمان الكامل؛ وهو: مِنَّتُهم بالإسلام على النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الراغب: "المنة: النّعمة الثّقيلة، ويقال ذلك على وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيقال: مَنَّ فلان على فلان: إذا أعطاه حتى أثقله بالنّعمة. والمِنَّة على الحقيقة لا تكون إلّا لله تعالى، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص: ٥]؛ والوجه الثاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس إلّا عند كفران النّعمة"(١).

ومعنى الآية: يعدون إسلامهم منة عليك يا رسول الله، يستوجبون عليها الحمد والثناء!!؛ فأدبهم الله تعالى بقوله للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾، أي: لا تمنوا على إسلامكم، بل الله تعالى هو صاحب الفضل والمنة، لأنه عز وجل هو الذي أرشدكم ووفقكم للإيمان، إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان(٢).

وبهذا رد الله تعالى عليهم وأدبهم أدبا عظيما من آداب الإيمان، وهو نسبة الفضل في الهداية للإيمان لله عز وجل، فهو سبحانه صاحب الفضل العظيم.

ولا يخفى ما لهذا التوجيه الإلهي من أثر عظيم في التربية الإيمانية، ومن ثَمَّ بناء المجتمع الإسلامي على أسس إيمانية صحيحة راسخة؛ لأن خُلُق المَنِّ خُلُقٌ سيئ ومذموم ولو كان فيما يملكه الإنسان، وهو مبطل للعمل، وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ فما بالنا إذا كان منًّا بما لا يملكه الإنسان، وهو الهداية للإيمان!!. فلا شك أن المصيبة ههنا كبيرة جدا، وأن هذا خلل إيماني عظيم يجب تصحيحه.

كما أن في تربية المؤمنين على نسبة الفضل لله تعالى إصلاحٌ لأنفسهم وتهذيب لها على خلق التواضع، وإنكار الذات، حتى تتعود على الأدب مع الله تعالى، فتنسب الفضل إليه وحده، ولا ريب أن هذا كله يؤسس لبناء مواطن صالح، متفان في عمله، منكر لذاته، محب لإخوانه.

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٧٧٧، ٧٧٨..
(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن: ٤/ ١٨٥، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٣٦٥، وفتح القدير: ٥/ ٨١، باختصار.

المطلب الثاني عشر

الأساس الثاني عشر: علم الله تعالى محيط بكل شيء

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ [الحجرات: ١٨].

لما ذكر الله تعالى من أول السورة الكريمة جملة من الواجبات والآداب والسلوكيات، والتي تتمثل إجمالا في: وجوب الأدب مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، ووجوب التثبت من الأخبار، وعدم الاستماع للإشاعات، ووجوب الإصلاح بين المتخاصمِين، ودفع عدوان الباغين، والمحافظة على أخوة الإيمان، وتطهير المجتمع من مساوئ الأخلاق (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغِيبة)، ووجوب الالتزام بتقوى الله عز وجل، وتقرير مبدأ المساواة في الإنسانية، وبيان ميزان التفاضل في الإسلام، ووجوب التحقق بالإيمان، وتحريم المَنِّ به، ووجوب نسبة الفضل له عز وجل.

وكانت هذه الواجبات والآداب والسلوكيات منها ما هو من أعمال الظاهر، ومنها ما هو من أعمال الباطن؛ لأجل هذا ناسب أن يختم الله تعالى السورة الكريمة بتقرير إحاطة علمه عز وجل بكل شيء ظاهرا وباطنا، حاضرا وغائبا، وأنه عز وجل بكل شيء بصير، حتى يرسخ الله تعالى في عقيدة المؤمنين أنه تعالى رقيب عليهم في السر والعلانية، وحتى يربيهم على المراقبة الذاتية؛ ليجعل المؤمن من نفسه على نفسه رقيبا في القيام بهذه الواجبات ظاهرا وباطنا.

والمعنى: "إن الله تعالى يعلم كل مستتر في العالم، ويبصر كل عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم، لا يخفي عليه منه شيء؛ فكيف يخفي عليه ما في ضمائركم؛ وهو علام الغيوب!"[(١)]. ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾: يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة، وحكمته البالغة، إن خيرا فخير وإن شرا فشر[(٢)].

وفي هذا الختام الكريم لهذه السورة الكريمة بناء لعقيدة المؤمن وترسيخ لإيمانه بأن علم الله تعالى وبصره سبحانه محيطان بكل شيء، لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا الأرض، ويستوي في علمه السر والعلانية؛ ومن ثَمَّ، فإن الله تعالى يعلم ويبصر كل حركاته وسكناته، وسره وعلانيته، وما هو أخفى من ذلك؛ فتعْظُم مراقبة المؤمن لله تعالى، ومراقبته لنفسه؛ فلا يجده الله تعالى حيث نهاه، ولا يفتقده حيث أمره. كما أن فيه تحذيرا وتخويفا وعلاجا لمن تسول له نفسه المخالفة، فيظن أنه في مأمن ولا يراه أحد، فيعتقد ما يشاء، أو يصنع ما يشاء.

ولا ريب أن هذا من أعظم أسس بناء المجتمع الإسلامي بناء قويا متينا.

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣/ ٣٦٠، وينظر: تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٦٥، واللباب في علوم الكتاب: ١٧/ ٥٦٤، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٢٤.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٨١، وتيسير الكريم الرحمن: ص٨٠٣.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين.

أما بعد،

فقد تبين لي في نهاية هذا البحث: (أسس بناء المجتمع الإسلامي كما تصورها سورة الحجرات دراسة تفسيرية موضوعية) أن سورة الحجرات قد تضمنت جانبا عظيما من أسس بناء المجتمع الإسلامي، وتتمثل في الآتي:

١- الأساس الأول: تقديم أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، على كل شيء.

وهو دليل الطاعة والمتابعة، وصمام أمان المجتمع الإسلامي؛ لأن الخير كل الخير في اتباع شرع الله تعالى، والسير على منهاجه، ومخالفته أساس الخيبة والخسران، في الدنيا والآخرة.

٢- الأساس الثاني: وجوب الالتزام بتقوى الله تعالى.

لأن التقوى أساس صلاح في المجتمع، وبها يُحفظ أفراده من الفساد والانحلال.

٣- الأساس الثالث: وجوب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

لأنه العامل الأساسي في الاقتداء بالكتاب والسنة، والتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم.

٤- الأساس الرابع: وجوب التثبت من الأخبار.

للمحافظة على أمن واطمئنان واستقرار المجتمع، وحماية أبنائه وحفظ حقوقهم وحرماتهم، حتى لا يقعوا تحت الظلم، أو يؤخذوا بجريرة غيرهم دون ذنب منهم.

٥- الأساس الخامس: وجوب الإصلاح بين المتخاصمِين، وإعانة المظلومين، ودفع عدوان الباغين.

لحماية المجتمع من الشقاق والخلاف، والتفرق والتصدع والتشرذم، الذي يمكن أن يعصف بأمنه واستقراره، ويعصف بحاضره اجتماعيا واقتصاديا؛ نتيجة انتشار العداوات وفشو الظلم والتقاتل.

٦- الأساس السادس: المحافظة على أخوة الإيمان.

لتقوية أواصر المحبة بين أفراد المجتمع، ليزداد تماسكهم وترابطهم، وتقوى وحدة صفهم وكلمتهم، والاتحاد قوة.

٧- الأساس السابع: وجوب تطهير المجتمع من مساوئ الأخلاق.

لأن التطهر من الأخلاق الرذيلة أساس عظيم في قيام المجتمع الفاضل ونجاحه؛ لأن الأخلاق هي السلوك العملي لسلامة عقيدة المجتمع، وصحة عبادته ومعاملاته، والدليل الواقعي على رقيه وتحضره.

٨- الأساس الثامن: الالتزام بتقوى الله تعالى.

لأن التقوى هي التطبيق العملي لتعاليم الإسلام في الدين والحياة؛ وأهلها أهل هم أهل الإتقان والإبداع، وهم سواعد المجتمع وبناة حضارته، ومن أقوى عوامل قوته.

٩- الأساس التاسع: إرساء مبدأ المساواة في الإنسانية، وميزان التفاضل في الإسلام.

لأن إرساءهما يؤسس لمجتمع راقٍ قوي متماسك تسود فيه العدالة والمساواة في الحقوق الإنسانية، وتُمحى منه كل صور الطبقيةً والتمييز والازدراء، ولا تكون العبودية فيه إلا لله تعالى وحده، وعلى درجة التقوى في تلك العبودية يكون الفضل عند الله تعالى.

١٠- الأساس العاشر: وجوب التحقق بالإيمان.

لأن التحقق بالإيمان اعتقادا وقولا وعملا هو أساس العمل الصالح، والبناء الناجح، والنهضة والازدهار، وهو الموجه والقائد للنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة. أما مجرد القول باللسان فلا يمكن أن يوجه المرء وأن يصنع منه عضوا صالحا ناجحا في المشاركة في بناء المجتمع الصالح.

١١- الأساس الحادي عشر: تحريم المَنِّ بالإسلام، ووجوب نسبة الفضل لله تعالى

وفي ذلك إصلاحٌ للنفوس وتهذيب لها على خلق التواضع، الذي لا يأتي إلا بالخير، وهذا يؤسس لبناء مواطن متفان في العمل، منكر لذاته محب لإخوانه.

١٢- الأساس الثاني عشر: علم الله تعالى محيط بكل شيء

وفيه بناء لعقيدة المؤمن وترسيخ لإيمانه بأن الله تعالى رقيب عليه؛ لتعْظُم مراقبته لنفسه ومحاسبته لها، قبل محاسبة القانون والنظام؛ وهذا يقوي لديه الوازع الديني؛ فلا يوجد حيث نهاه الله، ولا يُفتقد حيث أمره الله. كما أن فيه تحذيرا وتخويفا وعلاجا لمن تسول له نفسه المخالفة، فيظن أنه في مأمن ولا يراه أحد، فيعتقد ما يشاء، أو يصنع ما يشاء. ولا ريب أن هذا من أعظم دعائم بناء المجتمع الإسلامي بناء قويا متينا.

وأخيرا:

أوصى الباحثين بمتابعة البحث في سور القرآن الكريم لاستنباط جوانب أخر من أسس بناء المجتمع الإسلامي.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

*_*_*_*_*

فهرس المصادر والمراجع

١. أحكام القرآن لابن العربي، ط/ دار الكتب، العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
٢. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
٣. أسباب نزول القرآن للواحدي، ط/ دار الإصلاح، الدمام، ١٩٩٢م..
٤. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ط دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
٥. التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، ط/ شركة دار الأرقم، بيروت، ١٤١٦ هـ.
٧. تفسير القرآن للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ط/ مكتبة الرشد، الرياض، ط/١، ١٤١٠هـ.
٨. تفسير ابن أبى حاتم = تفسير القرآن العظيم، ط/ مكتبة نزار الباز بمكة المكرمة، بدون تاريخ.
٩. تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ت: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م.
١٠. تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم، ط دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦م.
١١. التفسير الكبير للرازي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
١٢. التفسير الوسيط للواحدي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م
١٣. تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٤. جامع البيان، للطبري، ط/ دار الريان للتراث بالقاهرة، ١٩٨٧م.
١٥. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ط/ دار الحديث، بالقاهرة، ١٩٩٦م.
١٦. سنن أبي داود، للإمام أبي داود، ت: شعيب الأرناؤوط، ط/ دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩م.
١٧. سنن الترمذي، للإمام الترمذي، ت: أحمد شاكر، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
١٨. الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض، ط/ النشرتي، القاهرة، ٢٠٠٦م.
١٩. صحيح الإمام البخاري، ط/ دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢ه.
٢٠. صحيح الإمام مسلم، للإمام مسلم، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.
٢١. غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، للسجستاني، ط/ دار قتيبة، سوريا، ١٩٩٥م.
٢٢. فتح القدير، للشوكاني، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون.

٢٣. الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري، ط/ مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون.
٢٤. الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٥. الكشف والبيان، للثعلبي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢م.
٢٦. لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ.
٢٧. اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
٢٨. لسان العرب: لابن منظور، ط دار صادر، بيروت، بدون.
٢٩. مجاز القرآن، لأبي عبيدة، ط/ مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨١ه.
٣٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
٣١. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي، ط/ دار الكلم الطيب، بيروت، ١٩٩٨م.
٣٢. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرناؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م.
٣٣. معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٣٤. معاني القرآن، للفراء، ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الأولى، بدون تاريخ.
٣٥. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، ط/ عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م.
٣٦. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط/ دار المعرفة، بيروت.
٣٧. النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ط/ دار الكتاب العلمية، بدون تاريخ.
٣٨. النكت والعيون، للماوردي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٣٩. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الجزري، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.